

ألف ليلة وليلة

حكاية علي بن البكار مع شمس النهار

## حكاية علي بن البكار مع شمس النهار

وفي الليلة الرابعة والثمانين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أنه كان في قديم الزمان في خلافة هارون الرشيد رجل تاجر له ولد يسمى أبا الحسن علي بن طاهر وكان كثير المال والنوال حسن الصورة محبوباً عند كل من يراه وكان يدخل دار الخلافة من غير غذن ويحبه جميع سراري الخليفة وجواريه وكان ينادمه وينشد عنده الأشعار ويحدثه بنوادر الأخبار إلا أنه كان يبيع ويشترى في سوق التجار وكان يجلس على دكان شاب من أولاد ملوك العجم يقال له: علي بن بكار وكان ذلك الشاب مليح القامة ظريف الشكل كامل الصورة مورد الخدين مقرون الحاجبين عذب الكلام ضاحك السن يحب البسط والإنشراح فاتفق لهما كانا جالسين يتحدثان ويضحكان وإذا بعشر جوار كأنهن الأقمار وكل منهن ذات حسن وجمال وقد واعتدل وبينهن صبية راكبة على بغلة بسر ج مزركش، له ركاب من الذهب كما قال فيها الشاعر:

لها بشر مثل الحرير ومنطق  
وعينان قال الله كونا فكانتا  
رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر  
فعولان بالألباب ماتفعل الخمر  
فيا حبها زدني جوى كل ليلة  
ويا سلوة الحباب موعذك الحشر

فلما وصلوا إلى دكان أبي الحسن نزلت عن البغلة وجلست على دكانه فسلمت عليه وسلم عليها فلما رآها علي بن كار سلبت عقله وأراد القيام فقالت له: اجلس مكانك كيف تذهب إذا حضرنا هذا ما هو انصاف؟ فقال: والله يا سيدتي إنني هارب مما رأيت وما أحسن قول الشاعر:

هي الشمس مسكنها في السماء  
فلن تستطيع إليها صعوداً  
فجز الفؤاد عزاء جميلاً  
ولن تستطيع إليك نزولاً

فلما سمعت ذلك الكلام تبسمت وقالت لأبي الحسن: ما اسم هذا الفتى ومن أين هو؟ فقال لها: هذا غريب اسمه علي بن بكار بن ملك العجم والغريب يجب إكرامه فقالت له: إذا جاءتك جاريتي فارسه لعندي فقال أبو الحسن: على الرأس ثم قامت وتوجهت إلى حال سبيلها. هذا ما كان من أمرها.

وأما ما كان من أمر علي بن بكار فإنه صار لا يعرف ما يقول وبعد ساعة جاءت الجارية إلى أبي الحسن وقالت: إن سيدتي تطيبك أنت ورفيقك فنهض أبو الحسن وأخذ معه علي بن بكار وتوجهت إلى دار هارون الرشيد فأدخلتهما في مقصورة وأجلستهما وإذا بالموائد وضعت قدامهما فأكلا وغسلا أيديهما، ثم أحضرت لهما الشراب فشربا، ثم أمرتهما بالقيام فقاما معها وأدخلتهما مقصورة أخرى مركبة على أربعة أعمدة وهي مفروشة بأنواع الفرش مزينة بأحسن الزينة، كأنها من قصور الجنان اندهشا مما عاينا من التحف. فبينما هما يتفرجان على هذه الغرائب وإذا بعشر جوار أقبلن وبينهن جارية اسمها شمس النهار كأنها القمر بين النجوم وهي متوحشة تافضل شعرها وعليها لباس أزرق أزرار من الحرير بطراز من الذهب وفي وسطها حياصة مرصعة بأنواع الجواهر ولم تزل تتبختر حتى جلست على السرير فلما رآها علي بن بكار أنشد هذه الأشعار:

إن هذي هي ابتداء سقامي  
عندها قد رأيت نفسي ذابنت  
وتمادي وجدني وطول غرامي  
من ولوعي بها وبري عظامي

فلما فرغ من شعره قال لأبي الحسن لو عملت معي خيراً كنت أخبرتني بهذه الأمور قبل الدخول هنا لأجل أن أوطن نفسي وأصبرها على ما أصابها ثم بكى وأن واشتكى فقال له أبو الحسن: يا أخي أنا ما أردت لك إلا الخير ولكن خشيت أن أعلمك بذلك فيلحقك من الوجد ما يصدك عن لقائنا ويحيل بينك وبين وصلها فطبت نفساً وقر عيناً فهي بسعدك مقبلة وللقائك متوصلة، فقال علي بن بكار: ما اسم هذه الصبية؟ فقال أبو الحسن: تسمى شمس النهار وهي من محاطي أمير المؤمنين هارون الرشيد وهذا المكان قصر الخلافة ثم إن شمس النهار جلست وتأملت محاسن علي بن بكار وتأمل هو حسنهما واشتغلا بحب بعضهما وقد أمرت الجواري أن تجلس كل واحدة منهن في مكانها على سرير، فجلست كل واحدة قبالة طاقة وأمرتهن بالغناء فتسلمت واحدة منهن العود وأنشدت تقول:

أعد الرسالة ثانية  
والذي يا ملك الملاح  
وخذ الجواب علانية  
وقفت أشكو حاله  
ويا حياتي الغالية  
مولاي يا قلبي العزيز

أنعم علي بقبله  
وأردها لك لا عدمت  
وإذا أردت زيادة  
يا ملبسي ثوب الرضا

هبة وإلا عارية  
بعينها وكما هي  
خذها ونفسي راضية  
يهنيك ثوب العافية

فطرب علي بن بكار وقال: زيديني من مثل هذا الشعر، فحركت الأوتار وأنشدت هذه الأشعار:

من كثرة البعد يا حبيبي  
يا حظ عيني ومناها  
ارث لمن طرفه غريق

علمت طول البكا جفوني  
ومنتهى غايتي وديني  
في عبرة الواله الحزين

فلما فرغت من شعرها قالت شمس النهار لجارية غيرها: أنشدي فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

سكرت من لحظه لا من مدامته  
فما السلاف سلنتي بل سوافه  
لوى بعزمي أصداغاً لوين له

ومال بالنوم عن عيني تمايله  
والشمول شلنتي بل شمائله  
وغالى عقلي بما تهوى غلائله

فلما سمعت شمس النهار إنشاد الجاري تنهدت وأعجبها الشعر ثم أمرت جارية أخرى أن تغني فأنشدت هذه الأبيات:

وجه لمصباح السماء مباهي  
رقم العدار غلايته بأحرف  
نادى عليه الحسن حين لقيته

يبود الشباب عليه رشح مياه  
معنى الهوى في طيبها متناهي  
هذا المنمّم في طراز الله

فلما فرغت من شعرها قال علي بن بكار لجارية قريب منه، أنشدي أنت أيتها الجارية فأخذت العود وأنشدت هذه الأبيات:

زمن الوصل يضيق عن  
كم من صدور متلف  
فاستغنموا وقت السعود

هذا التماذي والدلال  
ما هكذا أهل الجمال  
بطيب ساعات الوصال

فلما فرغت من شعرها تنهد علي بن بكار وأرسل دموعه الغزار، فلما رآته شمس النهار قد بكى وأن واشتكى أحرقها الوجد والغرام وأتلفها الوله والهيام فقامت من فوق السرير وجاءت إلى باب القبة فقام علي بن بكار وتلقاها ووقعا مغشياً عليهما في باب القبة فقمنا الجواري إليهما وحملنهما وأدخلنهما القبة ورششن عليهما ماء الورد فلما أفاقا لم يجدا أبا الحسن وكان قد اختفى في جانب سرير فقالت الصبية: أين أبو الحسن فنظر لها من جانب السرير فسلمت عليه وقالت له: أسأل الله أن يقدرني على مكافأتك يا صاحب المعروف، ثم أقبلت على علي بن بكار وقالت له: يا سيدي ما بلغ بك الهوى إلى غاية إلا وعندني أمثالها وليس لنا إلا الصبر على ما أصابنا، فقال علي بن بكار: والله يا سيدتي ليس جمع المال شملي بك بطيب وو لا ينطفئ إليك ما عندي من اللهب ولا يذهب ما تمكن من حبك في قلبي إلا بذهاب روعي، ثم بكى فنزلت دموعه على خده كأنها المطر، فلما رآته شمس النهار يبكي بكت لبكائه فقال أبو الحسن: والله إنني عجب من أمركما واحترت من شأنكما فإن حالكما عجيب وأمركما غريب في هذا البكاء وأنتما مجتمعان فكيف يكون الحال بعد انفصالكما؟ ثم قال: هذا ليس وقت حزن وبكاء بل هذا وقت سرور وفرح.

فأشارت شمس النهار إلى جارية فقامت وعادت ومعها وصائف حاملات مائدة صحافها من الفضة وفيها أنواع الطعام، ثم وضعت المائدة قدامها وصارت شمس النهار تأكل وتلقم علي بن بكار حتى اكتفوا، ثم رفعت المائدة وغسلوا أيديهم وجاءتهم المباخر بأنواع العود وجاءت القماقم بماء الورد فتبخروا وتطيبوا وقدمت لهم أطباق من الذهب المنقوش فيها من أنواع الشراب والفواكه والنقل وما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم جاءت لهم بطشت من العقيق ملآن من المدام، فاخترت شمس النهار عشر وصائف أوقفتهن عندها وعشر جوار من المغنيات وصرقت باقي الجواري إلى أماكنهن وامرت بعض الحاضرات من الجواري أن يضربن العود ففعلن ما أمرت به، وأنشدت واحدة منهن:

بنفسي من رد التحية ضاحكاً  
لقد أبرزت سر الغرام سرائري  
وحالت دموع العين بيني وبينه

فجدد بعد اليأس في الوصل مطعمي  
وأظهرت للعدال ما بين أضلعي  
كان دموع العين تعشفه معي

فلما فرغت من شعرها قامت شمس النهار وملأت الكأس وشربته ثم ملأته وأعطته لعلي بن بكار.  
وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخامسة والثمانين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن شمس النهار ملأت الكأس لعلي بن بكار، ثم أمرت جارية أن تغني فأنشدت هذين البيتين:

تشابه دمعي إذ جرى ومدامتي  
فمن مثل الكأس عيني تسكب  
فوالله لا أدري أبالخمر أسلبت  
جفوني أم من أدمعي كنت أشرب

فلما فرغت من شعرها شرب علي بن بكار كأسه ورده إلى شمس النهار فملأته وناولته لأبي الحسن فشربه: ثم أخذت العود وقالت: لا يغني على قنحي غيري، ثم شدت الأوتار وأنشدت هذه الأشعار:

غرائب الدمع في خديه تضطرب  
فوالدمع إن قربوا جار وإن بعدوا  
يبكي من القرب خوفاً من تباعدهم  
وجداً ونار الهوى في صدره تنقد

فلما سمع علي بن بكار وأبو الحسن والحاضرون شعر شمس النهار كادوا يطيروا من الطرب ولعبوا وضحكوا، فبينما هم على هذا الحال إذا بجارية أقبلت وهي ترتعد من الخوف وقالت: يا سيدتي وصل أمير المؤمنين وهاهو بالباب ومعه عفيف ومسرور وغيرهما، فلما سمعوا كلام الجارية كادوا أن يهلكوا من الخوف فضحكت شمس النهار وقالت: لا تخافوا، ثم قالت للجارية: ردي عليهم الجواب بقدر ما نتحول من هذا المكان، ثم إنها أمرت بغلق باب القبة ثم خرجت إلى البستان وجلست على سريرها وأمرت جارية أن تكبس رجليها وأمرت بقية الجواري أن يمضين إلى أماكنهن وأمرت الجارية أن تدع الباب مفتوحاً ليدخل الخليفة فدخل مسرور ومن معه وكانوا عشرون وبأيديهم السيوف فسلموا على شمس النهار، فقالت لهم: لأي شيء جئتم؟ فقالوا: إن أمير المؤمنين يسلم عليك وقد استوحش لرويتك ويخبرك أنه كان عنده اليوم سرور وحظ زائد وأحب أن يكون ختام السرور بوجودك في هذه الساعة، فهل تأتيين عنده أو يأتي عنده؟ فقامت وقبلت الأرض وقالت سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين، ثم أمرت بإحضار القهرمانات والجواري فحضرن وأظهرت لهن أنها مقبلة على ما أمر به الخليفة وكان المكان كاملاً في جميع أموره ثم قالت للخدم: امضوا إلى أمير المؤمنين واخبروه أنني في انتظاره بعد قليل إلى أنأهبي له مكاناً بالفرش والأمتعة فمضى الخدم مسرعين إلى أمير المؤمنين. ثم إن شمس النهار قلعت ودخلت إلى معشوقها علي بن بكار وضمتها إلى صدرها وودعته فبكى بكاءً شديداً وقال: يا سيدتي هذا الوداع فمتعيني به لعله يكون على تلف نفسي وهلاك روعي في هواك ولكن أسأل الله أن يرزقني الصبر على ما بلاني به من محبتي، فقالت له شمس النهار: والله ما يصير في التلف إلا أنا فإنك قد تخرج إلى السوق وتجتمع بمن يسليك فتكون مصوناً وغرامك مكنوناً وأما أنا فسوف أقع في البلاء خصوصاً وقد وعدت الخليفة بميعاد فر بما يلجفتني من ذلك عظيم الخطر بسبب شوقي إليك وحبي لك وتعشقي فيك وتأسفي على مفارقتك، فبأي لسان أغني؟ وبأي قلب أحضر عند الخليفة؟ وبأي نظر أنظر إلى مكان ما أنت فيه؟ وكيف أكون في حضرة لم تكن بها؟ وبأي ذوق أشرب مداماً ما أنت حاضره؟ فقال لها أبو الحسن: لا تتحيري واصبري ولا تغفلي عن منادمة أمير المؤمنين هذه الليلة ولا تريه تهاوناً، فبينما هما في الكلام إذا بجارية قدمت وقالت: يا سيدتي جاء غلمان أمير المؤمنين فنهضت قائمة وقالت للجارية: خذي أبا الحسن ورفيقه واقصدي بهما أعلى الروشن المطل على البستان ودعيهما هناك إلى الظلام ثم تحيلي في خروجهما فأخذتهما وأطلعتهما في الروشن وأغلقت الباب عليهما ومضت إلى حال سبيلها وصارا ينظران إلى البستان، وإذا بالخليفة قدم وقدامه نحو المائة خادم بأيديهم السيوف وحواليه عشرون جارية كأنهن الأقمار عليهن أفر من يكون من الملبوس وعلى رأس كل واحدة تاج مكلل بالجواهر والياقوت وفي يد كل واحدة شمعة موقودة والخليفة يمشي بينهم وهن محيطات به من كل ناحية ومسرور وعفيف وصيف قدامه وهو يتمايل بينهم. فقامت شمس النهار وجميع من عندها من الجواري ولا يقينه من البستان وقبلن الأرض بين يديه ولم يزلن سائرته أمامه إلى أن جلس على السرير والذين في البستان من الجواري والخدم وقفوا حوله والشموع موقودة والآلات تضرب إلى أن أمرهم بالانصراف والجلوس على الأسرة فجلست شمس النهار على السرير بجانب سرير الخليفة وصارت تحدثه، كل ذلك وأبو الحسن وعلي بن بكار ينظران ويسمعان والخليفة لم يرهما.

ثم إن الخليفة صار يلعب مع شمس النهار، وأمر بفتح القبة ففتحت وشرعوا طيقانها وأوقدوا الشموع حتى صار المكان وقت الظلام كالنهار، ثم إن الخدم صاروا ينقلون آلت المشروب فقال أبو الحسن: إن هذه الآلات والمشروب والتحف ما رأيت مثله وهذا شيء من أصناف الجواهر ما سمعت بمثله وقد خيل لي في المنام وقد اندهش عقلي وخفق قلبي، وأما علي بن بكار فإنه لما فارقت شمس النهار لم يزل مطروحاً على الأرض من شدة العشق فلما أفاق صار ينظر إلى هذه الفعال التي لا يوجد مثلها فقال لأبي الحسن: يا أخي أخشى أن ينظرنا الخليفة أو يعلم حالنا وأكثر خوفي عليك وأما أنا فأني أعلم نفسي من الهالكين وما سبب موتي إلا العشق والغرام وفرط الوجد والهيام وترجو من الله الخلاص مما بلينا. ولم يزل علي بن بكار وأبو الحسن ينظران من الروشين إلى الخليفة وما هو فيه حتى تكاملت الحضرة بين يدي الخليفة، ثم إن الخليفة التفت إلى جارية من الجواري وقال: هات ما عندك يا غرام من السماع المطرب فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

وما وجد إعرابية بان أهلها  
فحنت إلى بان الحجاز ورنده  
إذا أتست ركباً تكفل شوقها  
بنار قراره والدموع بورده  
بأعظم من وجدتي بحبي وغنما  
يرى أنني أذنبت ذنباً بوده

فلما سمعت شمس النهار هذا الشعر وقعت مغشياً عليها من فوق الكرسي الذي كانت عليه وغابت عن الوجود فقام الجواري واحتملنها، فلما نظر علي بن بكار من الروشن وقع مغشياً عليه، فقال أبو الحسن: إن القضاء قسم الغرام بينكما بالتسوية، فبينما هما يتحدثان إذا بالجارية التي أطلعتها الروشن جاءتتهما وقالت: يا أبا الحسن انهض أنت ورفيقك وانزلا فقد ضاقت علينا الدنيا وأنا خائفة أن يظهر أمرنا فقومنا في هذه الساعة وإلا متنا. فقال أبو الحسن: فكيف ينهض معي هذا الغلام ولا قدرة له على النهوض؟ فصارت الجارية ترش ماء الورد على وجهه حتى أفاق فحمله أبو الحسن هو والجارية ونزلا به من الروشن ومشيا قليلاً، ثم فتحت الجارية بيدها فجاء زورق فيه إنسان يقذف فأطلعتهما الجارية في الزورق وقالت للذي في الزورق: أطلعتهما في ذلك البر، فلما نزلا في الزورق وفارق البستان نظر علي بن بكار إلى القبة والبستان وودعهما بهذين البيتين:

مددت إلى التوديع كفاً ضعيفة  
وأخرى على الرضاء تحت فؤادي  
فلا كان هذا آخر العهد بين  
ولا كان هذا الزاد آخر زادي

ثم إن الجارية قالت للملاح: أسرع بهما، فصار يقذف لأجل السرعة والجارية معهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكنت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السادسة والثمانين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الملاح صار يقذف والجارية معهم إلى أن قطعوا ذلك الجانب وعدوا إلى البر الثاني، ثم انصرفت الجارية وودعتهما وطلعا في البر وقالت لهما: كان قصدي أن لا أفارقكما لكنني لا أقدر أن أسير إلى مكان غير هذا الموضع، ثم إن الجارية عادت وصار علي بن بكار مطروحاً بين يدي أبي الحسن لا يستطيع النهوض فقال له أبو الحسن: إن هذا المكان غير أمين ونخشي على أنفسنا من التلف في هذا المكان بسبب اللصوص وأولاد الحرام فقام علي بن بكار يتمشى قليلاً وهو لا يستطيع المشي، وكان أبو الحسن له في ذلك الجانب أصدقاء فقصدهم من يثق به ويركن إليه منهم فدق بابه فخرج إليه مسرعاً.

فلما رأهما رحب بهما ودخل بهما إلى منزله وأجلسهما وتحدثت معهما وسألتهما أين كانا فقال أبو الحسن: قد خرجنا في هذا الوقت وقد أحوجنا إلى هذا الأمر إنسان عاملته في دراهم وبلغني أنه يريد السفر بمالي فخرجت في هذه الليلة وقصدته واستأنست برفيقي هذا علي بن بكار، وجئنا لعلنا ننظره فتواري منا ولم نره وعدنا بلا شيء وشق علينا العودة في هذا الليل ولم نر لنا محلاً غير محلك فجئنا إليك على عوائدك الجميلة فرحب بهما واجتهد في إكرامهما وأقاما عنده بقية ليلتهما.

فلما أصبح الصباح خرجا من عنده وما زالوا يمشيان حتى وصلا إلى المدينة ودخلا وجزا على بيت إبي الحسن فحلف على صاحبه علي بن بكار وأدخله بيته فاضجعا على الفراش قليلاً، ثم أفاقا فأمر أبو الحسن غلمانه أن يفرشوا البيت فرشاً فاخراً ففعلوا، ثم إن أبا الحسن قال في نفسه: لا بد أن أؤانس هذا الغلام وأسليه عما هو فيه فأني أدري بأمره، ثم إن علي بن بكار لما أفاق استدعى بماء فحضروا له الماء فقام وتوضأ وصلى ما فاتته من الفروض في يومه وليلته وصار يسلي نفسه بالكلام.

فلما رأى منه ذلك أبو الحسن تقدم إليه وقال: على الأليق بما أنت فيه أن تقيم عندي هذه الليلة لينشرح صدرك وينفرج ما بك من كرب الشوق وتتلاهي معناه، فقال علي بن بكار: أفعل يا أخي ما بدا لك فإني على كل حال غير ناج مما أصابني فاصنع ما أنت صانع، فقام أبو الحسن واستدعى غلمانه وأحضر أصحابه وأرسل إلى أرباب المغاني والآلات فحضروا وأقاموا على أكل وشرب وانشراح باقي اليوم إلى المساء ثم أوقدوا الشموع ودارت بينهم كؤوس المنادمة وطاب لهم الوقت فأخذت المغنية العود وجعلت تقول:

رميت من الزمان بسهم لحظ  
وعاندي الزمان وقل صبري  
فأضناني وفارقت الحبايب  
وإني قبل هذا كنت حاسب

فلما سمع علي بن بكار كلام المغنية خر مغشياً عليه ولم يزل في غشيته إلى أن طلع الفجر ويئس منه أبو الحسن ولما طلع النهار أفاق وطلب الذهاب إلى بيته فلم يمنعه أبو الحسن خوفاً من عاقبة أمره فاتاه غلمانه ببغلة وأركبوه وصار معه أبو الحسن إلى أن أدخله منزله فلما اطمأن في بيته حمد الله أبو الحسن على خلاصه من هذه الورطة وصار يسليه وهو لا يتمالك نفسه من شدة الغرام ثم إن أبا الحسن ودعه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة والثمانين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أبا الحسن ودعه، فقال له علي بن بكار: يا أخي لا تقطع عني الأخبار فقال: سمعاً وطاعة ن ثم إن أبا الحسن قام من عنده وأتى إلى دكانه وفتحها فجلس غير قليل حتى أقبلت إليه الجارية وسلمت فرد عليها السلام ونظر إليها فوجدها خافقة القلب يظهر عليها أثر الكآبة، فقال لها أهلاً وسهلاً كيف حال شمس النهار؟ فقالت: سوف أخبرك بحاله، كيف حال علي بن بكار فأخبرها أبو الحسن بجميع ما كان من أمره فتأسفت وتأوهت وتعجبت من ذلك الأمر ثم قالت: إن حال سيدتي اعجب من ذلك ن لما توجهتم رجعت وقلبي يخفق عليكم وما صدقت بنجاتكم فلما رجعت وجدت سيدي مطروحة في القبة، لا تتكلم ولا ترد على احد وامير المؤمنين جالس عند رأسها لا يجد من يخبره بخبرها ولم يعلم ما بها ولم تزل في غشيتها إلى نصف الليل ثم أفاق، فقال لها أمير المؤمنين: ما الذي أصابك يا شمس النهار؟ وما الذي اعتراك في هذه الليلة؟ فلما سمعت شمس النهار كلام الخليفة قبلت أقدامه وقالت له: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك إنه خامرني خلط، فأضرم النار في جسدي فوقعت مغشياً علي من شدة ما بي ولا أعلم كيف كان حالي، فقال لها الخليفة: ما الذي استعملته في نهارك؟ قالت: أفطرت على شيء لم أكله قط ثم أظهرت القوة واستدعيت بشيء من الشراب فشربته وسألت أمير المؤمنين أن يعود إلى انشراحه فعاد إلى الجلوس في القبة فلما جئت إليها سألتني بما فعلت معكما وأخبرتها بما أنشده علي بن بكار فسكتت، ثم إن أمير المؤمنين جلس وأمر الجارية بالغناء فأنشدت هذين البيتين:

ولم يصف لي شيء من العيش بعدكم  
يحق لدمعي أن يكون من الدما  
فياليت شعري كيف حالكم بعدي  
إذا كنتم تبكون دمعاً على بعدي

فلما سمعت هذا الشعر وقعت مغشياً عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والثمانين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت لأبي الحسن: إن سيدتي لما سمعت هذا الشعر وقعت مغشياً عليها فأمسكت يدها ورششت ماء الورد على وجهها فأفاق، فقلت لها: يا سيدتي لا تهتكي نفسك ومن يحويه قصرك بحياة محبوبك أن تصبير، فقالت: هل في الأمر أكثر من الموت؟ فأنا أطلبه لأن فيه راحتي، فبينما نحن في هذا القول إذ غنت جارية بقول الشاعر:

وقالوا لعل الصبر يعقب راحة  
وقد أكيد الميثاق بيني وبينه  
فقلت وأين الصبر بعد فراقه  
نقطع حبال الصبر عند عناقه

فلما فرغت من الشعر وقعت مغشياً عليها فنظرها الخليفة فأتى مسرعاً إليها وأمر برفع الشراب وأن تعود كل جارية إلى مقصورتها وأقام عندها باقي ليلته إلى أن أصبح الصباح فاستدعى الأطباء وأمرهم بمعالجتها ولم يعلم بما هي فيه من العشق والغرام وأقامت عندها حتى ظننت أنها قد انصلح حالها وهذا الذي عاقبي عن المجيء إليكما وقد خلقت عندها جماعة من خواصها لما أمرتني بالمسير إليكما لأخذ خبر علي بن بكار واعدوا إليها.

فلما سمع أبو الحسن كلامها تعجب وقال لها: والله أخبرتك بجميع ما كان من أمره فعودي إلى سيدتك وسلمي

عليها وحثيها على الصبر وقولي لها اكنمي السر وأخبريها أنني عرفت أمرها وهو امر صعب يحتاج إلى التدبير فشكرته الجارية ثم ودعته وانصرفت إلى سيدتها. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر أبي الحسن فإنه لم يزل في دكانه إلى آخر النهار فلما مضى النهار قام وقلد دكانه وأتى إلى دار علي بن بكار فدق الباب فخرج له بعض غلمانه وأدخله فلما دخل عليه تبسم واستبشر بقدمه وقال له: يا أبا الحسن اوحشتني لتخلفك عني في هذا اليوم وروحي متعلقة بك باقي عمري، فقال له أبو الحسن: دع هذا الكلام فلو أمكن فداءك كنت أفديك بروحي وفي هذا اليوم جاءت جارية شمس النهار وأخبرتني أنه ما اعاقها عن المجيء إلا جلوس الخليفة عند سيدتها وأخبرتني بما كان من امر سيدتها وحكى له جميع ما سمعه من الجارية فتأسف علي بن بكار غاية الأسف وبكى ثم التفت إلى أبي الحسن وقال له: بالله أن تساعدني على ما بليت به وأخبرني ماذا تكون الحيلة؟ وإني أسألك من فضلك المبيت عندي في هذه الليلة لأستانس بك، فامتثل أبو الحسن أمره واجابه إلى المبيت عنده، وباتا يتحدثان في تلك الليلة، ثم إن علي بن بكار بكى وأرسل العبرات وأنشد هذه الأبيات:

غفرت بسيف اللحظة مغفري	وفرت برمح القد درع تصبري
وجعلت لنا من تحت مسكة خالها	كافور فجر شق ليل العنبري
فزعت فضرست العقيق بلؤلؤ	سكنت فرائده غدير السكر
وتنهدت جزعاً فأثر كفها	في صدرها فنظرت ما لم أنظر
أقلام مرجان كتبين تعتبر	بصحيفة البلور خمسة أسطر
يا حامل السيف الصقيل إذا رنت	إياك ضربة جفنها المتكسر
وتوق يا رب القناة الطعن إن	حملت عليك من القوم بأسمر

فلما فرغ علي بن بكار من شعره صرخ صرخة عظيمة ووقع مغشياً عليه فظن أبو الحسن أن روحه خرجي من جسده ولم يزل في غشيته حتى طلع النهار فأفاق وتحدث مع أبي الحسن ولم يزل أبو الحسن جالساً عند علي بن بكار إلى صحوه النهار. ثم انصرف من عنده وجاء إلى دكانه وفتحها وإذا بالجارية جاءت ووقفت عنده، فلما نظر إليها أومات إليه بالسلام فرد عليها السلام وبلغته سلام سيدتها وقالت له: كيف حال علي بن بكار؟ فقال لها: يا جارية لا تسألني عن حاله وما هو فيه من شدة الغرام فإنه لا ينام الليل ولا يستريح النهار وقد أنحل السهر وغلب عليه الضجر وصار في حال لا يسر حبيب فقالت له: إن سيدتي تسلم عليك وقد كتبت له ورقة وهي في حال أعظم من حاله وقد سلمتني الورقة، وقالت: لا تأتيني إلا بجوابها وافعلي ما أمرتك به وها هي الورقة معي فهل لك أن تسير معي إلى علي بن بكار، وتأخذ منه الجواب؟ فقال لها أبو الحسن: سمعاً وطاعة، ثم قفل الدكان وأخذ معه الجارية وذهب بها إلى مكان غير الذي جاء منه ولم يزل سائرين حتى وصلا إلى دار علي بن بكار، ثم أوقف الجارية على الباب ودخل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والثمانين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أبا الحسن ذهب بالجارية ودخل البيت فلما رآه علي بن بكار فرح به فقال له أبو الحسن: سبب مجيئي أن فلاناً أرسل إليك جاريته بركة تتضمن سلامه وذكر فيها أن سبب تاخره عنك عذر حصل له، والجارية واقفة بالباب فهل تأذن لها بالدخول؟ فقال علي بن بكار: أدخلوها وأشار له أبو الحسن انها جارية شمس النهار ففهم الإشارة، فلما رآها تحرك وفرح وقال لها بالإشارة: كيف حال السيدة شفاها الله وعافاها؟ فقالت بخير، ثم أخرجت الورقة ودفعتها له فأخذها وقبلها وناولها لأبي الحسن فوجد مكتوباً فيها هذه الأبيات:

ينبيك هذا الرسول عن خبري	فاستغن في ذكره عن النظر
خلقت صبا بحبكم دنفا	وطرفه لا يزال بالسهر
أكابد الصبر في البلاء فما	قلبي حلق مواقع القدر
فقر عيناً فلست تبعد عن	قلبي ولا يوم غبت عن بصري
وانظر إلى جسمك النحيل وما	قد حله واستدل بالأثر

و بعد فقد كتبت لك كتاباً بغير بيان وأطلقت لك بغير لسان وجملت شرح حالي أنلي عيناً لا يفارقها السهر وقلباً لا تترح عنه الفكر فكأنني قط ما عرفت صحة ولا فرحة ولا رأيت منظرأ باهياً ولا قطعت عيشاً هنيئاً، وكانني خلقت من الصباية ولم ألم الوجد والكآبة فعلى السقام مترادف والغرام متضاعف والشوق متكاسر وصوت كما قال الشاعر:

والعقل مختبل والقلب مسلوب	والعين ساهرة والجسم متعوب
والصبر منفصل والهجر متصل	والقلب منقبض والفكر منبسط

و اعلم أن الشكوى لا تطفئ نار البلوى لكنها تتعلل من أعله الإشتياق وأتقله الفراق وغني اتسلى بذكر نبط  
الوصال وما أحسن قول من قال:

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فآين حلوات الرسائل والكتب

قال أبو الحسن: فلما قرأناها هيجت ألفاظي بلابلي وأصابني معانيها مقاتلي ثم دفعتها إلى الجارية فلما أخذتها قال  
لها علي بن بكار: أبلغني سيدتك سلامي وعرفيها بوجدي وگرامي وامتزاج المحبة بلحمي وعظامي واخبريها  
انني محتاج إلى من ينقذني من بحر الهلاك وينجيني من هذا الإرتباك، ثم بكى فبكت الجارية لبكائه وودعته  
وخرجت من عنده وخرج أبو الحسن معها، ثم ودعها ومضى إلى دكانه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن  
الكلام المباح.

وفي الليلة التسعين بعد المئة قالت بلغني أيها الملك السعيد أن أبا الحسن ودع الجارية ورجع إلى دكانه فلما جلس  
فيه وجد قلبه انقبض وضاق صدره وتحير في أمره ولم يزل في فكر بقية يزمه وليلته وفي اليوم الثاني ذهب  
إلى علي بن بكار وجلس عنده حتى ذهبت الناس وساله عن حاله فأخذ في شكوى الغرام وما به من الوجد  
والهيام وأنشد يقول:

شكا ألم الغرام الناس قبلي وروع بالنوى حي وميت  
وأما مثل ما ضمت ضلوعي فآني لا سمعت ولا رأيت

فقال أبو الحسن: أنا ما رأيت ولا سمعت بمثلك في محبتك كيف يكون هذا الوجد وضعف الحركة، وقد تعلق  
بحبيب موافق فكيف إذا تعلق بحبيب مخالف مخادع فكان أمرك ينكشف؟ قال أبو الحسن: فركن علي بن بكار  
إلى كلامي وشكرني على ذلك وكان لي صاحب يطلع على أمري وأمر علي بن بكار ويعلم أننا متوافقان ولم  
يعلم أحد ما بيننا غيره وكان يأتيني فيسألني عن حال علي بن بكار وبعد قليل يسألني عن الجارية فقلت له: قد  
دعته إليها، وكان بينه وبينها ما لا مزيد عليه وهذا آخر ما انتهى من أمرهما ولكن دبرت لنفسني أمر أريد  
عرضه عليك. فقال له صاحبه: ما هو؟ قال أبو الحسن: اعلم أن رجل معروف بكثرة المعاملات بين الرجال  
والنساء وأخشى أن ينكشف أمرهما فيكون سبباً لهلاكه وأخذ مالي وهتك عيالي وقد اقتضى رأيي أن أجمع  
مالي وأجهز حالي وأتوجه إلى مدينة البصرة وأقيم بها حتى أنظر ما يكون من أحوالهما بحيث لا يشعر بي أحد  
فإن المحبة قد تمكنت منهما ودارت المراسلة بينهما، والحال أن الرسول بينهما جارية وهي كاتمة لأسرارهما  
واخشى أن يغلب عليها الضجر فتبوح بسرهما لأحد فيشيع خبرهما ويؤدي ذلك إلى هلاكه ويكون سبباً لتلفي  
وليس لي عذر عند الناس، فقال له صاحبه قد أخبرتني بخبر خطير يخاف من مثله العاقل الخبير كفاك الله شر  
ما تخافه وتخشاه ونجاك مما عقباه وهذا الرأي هو الصواب.

فانصرف أبو الحسن إلى منزله وصار يقضي مصالحه ويتجهز للسفر إلى البصرة، وقد قضى مصالحه وسافر  
إلى البصرة فجاء صاحبه بعد ثلاثة أيام ليزوره فلم يجده فسأل عنه جيرانه فقالوا له: إنه توجه من مدة ثلاثة أيام  
إلى البصرة لأن له معاملة عند تجارها فذهب ليطالب أرباب الديون وعن قريب يأتي، فاحتار الرجل في أمره  
وصار لا يدري أين يذهب وقال: يا ليتني لم أفارق أبا الحسن، ثم دبر حيلة يتوصل بها إلى علي بن بكار فقص  
داره وقال لبعض غلمانه: استأذن لي سيدك لأدخل أسلم عليه، فدخل الغلامو أخبر سيده به ثم عاد إليه وأذن له  
بالدخول فدخل عليه فوجده ملقى على الوسادة فسلم عليه فرد عليه السلام ورحب. ثم إن الرجل اعتذر إليه في  
تخلفه عنه تلك المدة، ثم قال له: يا سيدي إن بيني وبينك وبين أبي الحسن صداقة وإني كنت أودعه أسراري ولا  
أنقطع عنه ساعة فغبت في بعض المصالح مع جماعة من أصحابي مدة ثلاثة أيام ثم جئت إليه فوجدت دكانه  
مقفلة فسألت عنه الجيران فقالوا: إنه توجه إلى البصرة ولم أعلم له صديقاً أوفى منك، فبأنه أن تخبرني بخبره،  
فلما سمع علي بن بكار بكلامه تغير لونه واضطرب وقال: لم أسمع قبل هذا اليوم خبر سفره وإن كان الأمر كما  
ذكرت فقد حصل لي التعب ثم أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين:

قد كنت أبكي على ما فات مني من فرح وأهل ودي جميعاً غير أشتات  
واليوم فرق ما بيني وبينهم دهري فأبكي على أهل المودات

ثم إن علي بن بكار أطرق رأسه إلى الأرض يتفكر وبعد ساعة رفع رأسه إلى خادم له وقال له: امض إلى دار  
أبي الحسن واسأل عنه هل هو مقيم أم مسافر؟ فإن قالوا: سافر فاسأل إلى أي ناحية توجه؟ فمضى الغلام وغاب  
ساعة ثم أقبل إلى سيده وقال: إنني لما سألت عن أبي الحسن أخبرني أتباعه أنه مسافر إلى البصرة ولكن وجدت  
جارية واقفة على الباب فلما رأيتي عرفتني ولم أعرفها وقالت لي: هل أنت غلام علي بن بكار؟ فقلت لها: نعم  
فقال: إنني معي رسالة إليه من عند أعز الناس عليه فجاءت معي وهي واقفة على الباب، فقال علي بن بكار:

أدخلها، فطلع الغلام إليها وأدخلها فنظر الرجل الذي عند علي بن بكار إلى الجارية فوجدها ظريفة ثم إن الجارية تقدمت إلى علي بن بكار وسلمت عليه.

و أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الحادية والتسعين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما دخلت على علي بن بكار تقدمت إليه وسلمت عليه وتحدثت معه سراً وصار يقسم في أثناء الكلام ويحلف أنه لم يتكلم بذلك، ثم ودعته وانصرفت وكان الرجل صاحب أبي الحسن جوارحياً فلما انصرفت الجارية وجد للكلام محلاً فقال لعلي بن بكار: لا شك ولا ريب لدار الخلافة عليك مطالبة أو بينك وبينها معاملة فقال: ومن أعلمك بذلك؟ فقال: معرفتي بهذه الجارية لأنها جارية شمس النهار وكانت جاءتني من مدة برقعة مكتوب فيها أنها تشتهي عقد جواهر فأرسلت لها عقداً ثميناً.

فلما سمع علي بن بكار كلامه اضطرب حتى غشي عليه ثم عاد إلى نفسه وقال: يا أخي سألتك بالله من أين تعرفها؟ فقال له الجواهرجي: دع الإلحاح في السؤال، فقال له علي بن بكار: لا أرجع عنك إلا إذا أخبرتني بالصحيح فقال له الجواهرجي: أنا أخبرك بحيث لا يدخلك مني وهم ولا يعتربك من كلامي انقباض ولا أخفي عنك سراً وأبين لك حقيقة الأمر ولكن بشرط أن تخبرني بحقيقة حالك وسبب مرضك، فأخبره بخبره ثم قال: والله يا أخي ما حملني على كتمان أمري من غيرك إلا مخافة أن الناس تكشف أستار بعضها فقال الجواهرجي لعلي بن بكار: وأنا ما اردت اجتماعي بك إلا لشدة محبتي لك وغيرتي عليك وشفقتي على قلبك من ألم الفراق عسى أن أكون لك مؤنساً نيابة عن صديقي أبو الحسن مدة غيبته فطب نفساً وقر عيناً فشكره علي بن بكار على ذلك وأنشد هذين البيتين:

ولو قلت اني صابر بعد بعده  
وكيف أداري مدمعاً جريانه  
لكذبني دموع وفرط نحبيي  
على صحن خدي من فراق حبيبي

ثم إن علي بن بكار سكت ساعة من الزمان وبعد ذلك قال للجواهرجي أتدري ما أمرتني به الجارية؟ فقال: لا والله يا سيدي فقال: إنها زعمت أنني أشرت على أبي الحسن بالمسير إلى مدينة البصرة وانني دبرت بذلك حيلة لأجل عدم المراسلة والمواصلة فحلفت لها أن ذلك لم يكن فلم تصدقني ومضت إلى سيدتها وهي على ما هي عليه من سوء الظن لأنها كانت تصغي إلى أبي الحسن، فقال الجواهرجي: يا أخي إني فهمت من حال هذه الجارية هذا الأمر ولكن إن شاء الله تعالى أمون عوناً لك على مرادك فقال له علي بن بكار: وكيف تعمل معها وهي تنفر كوحش الفلاة؟ فقال له: لا بد أن أبذل جهدي في مساعدتك واحتياالي في التوصل إليها من غير كشف ستر ولا مضرة ثم استأنف في الإنصراف فقال له علي بن بكار: يا أخي عليك بكتمان السر ثم نظر إليه وبكى فودعه وانصرف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثانية والتسعون بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجواهرجي ودعه وانصرف وهو لا يدري كيف يعمل في إسعاف علي بن بكار وما زال ماشياً وهو متفكر في أمره إذ رأى ورقة مطروحة في الطريق فأخذها ونظر عنوانها وقرأها فإذا هي من المحب الأصغر إلى الحبيب الأكبر ففتح الورقة فرأى مكتوباً فيها هذين البيتين:

جاء الرسول بوصل منك يطمعني  
فما فرحت ولكن زادني حزناً  
وكان أكثر ظني أنه وهما  
علمي بأن رسولي لم يمن فهما

و بعد فاعلم يا سيدي أنني لم أدر ما سبب قطع المراسلة بيني وبينك فإن يكن صدر منك الجفاء فأنا أقابله بالوفاء وإن يكن ذهب منك الوداد فأنا أحفظ الود على البعاد كما يقول الشاعر:

به أحتمل وأستطل أصبر وعزاهن  
وول أقبل وقل اسمع ومر اطلع

فلما قرأها إذا بالجارية أقبلت تتلفت يميناً وشمالاً فرأت الورقة في يده فقالت: إن هذه الورقة وقعت مني فلم يرد عليها جواباً ومشى ومشت الجارية خلفه إلى أن أقبل على داره ودخل والجارية خلفه فقالت له: يا سيدي رد لي هذه الورقة فإنها سقطت مني فالتفت إليها وقال: يا جارية لا تخافي ولا تحزني ولكن أخبريني الصدق فأني كنوم للأسرار وأحلفك يميناً أنك لا تخفي عني شيئاً من أمر سيدتك فعسى الله أن يعينني على قضاء أغراضك ويسهل الأمور الصعاب على يدي، فلما سمعت الجارية كلامه قالت: يا سيدي ما ضاع سر أنت حافظه ولا خاب أمر أنت تسعى في قضائه ن اعلم أن قلبي مال إليك فانا أخبرك بحقيقة الأمر لتعطيني الورقة، ثم أخبرته بالخبر كله

وقالت: والله على ما أقول شهيد، فقال لها: صدقت فإن عندي علم بأصل الخبر ثم حدثها بحديث علي بن بكار وكيف أخذ ضميره وأخبرها بالخبر من أوله إلى آخره. فلما سمعت ذلك فرحت واتفقا على أنها تأخذ الورقة وتعطيها لعلي بن بكار وجميع ما يحصل ترجع إليه وتخبره به فأعطها الورقة فأخذتها وختمتها كما كانت وقالت: إن سيدتي شمس النهار أعطتها إلي مختومة فإذا قرأها ورد جوابها أتيتك به. ثم إن الجارية ودعته وتوجهن إلى علي بن بكار فوجدته في افتتاح فاعطته الورقة وقرأها ثم كتب لها ورقة رد للجواب وأعطها لها فأخذتها ورجعت بها إلى الجواهري حسب الاتفاق ففرض ختمها وقرأها فرأى مكتوباً فيها:

إن الرسول الذي كانت رسائلنا  
مكتومة عنده ضاقت وقد غضبا  
فاستخلصوا لي رسولا منكم ثقة  
يستحسن الصدق لا يستحسن الكذبا

وبعد فإني لم يصدر مني جفاء ولا تركت وفاء ولا نقضت عهداً ولا قطعت وداً ولا فارقته أسفاً وو لا لقيت بعد الفراق إلا تلتافاً ولا علمت أصلاً بما ذكرتم ولا أحب غير ما أحببتم وحق عالم السر والنجوى وا قصدي غير الاجتماع بمن أهوى وشأنني كتمان الغرام وإن أمرضني السقام وهذا شرح حالي والسلام. فلما قرأ الجواهري هذه الورقة وعرف ما فيها بكى بكاءً شديداً ثم إن الجارية قالت له: لا تخرج من هذا المكان حتى أعود إليك لأنه قد اتهمني بأمر من الأمور وهو معذور وأنا أريد أن أجمع بينك وبين سيدتي شمس النهار بأي حيلة فإني تركتها مطروحة وهي تنتظر مني رد الجواب. ثم إن الجارية مضت إلى سيدتها ولم تغب إلا قليلاً وعادت إلى الجواهري وقالت له: احذر أن يكون عندك جارية أم غلام؟ فقال: ما عندي غير جارية سوداء كبيرة السن تخدمني فقامت الجارية وأغلقت الأبواب بين جارية الجواهري وبينه وصرفت غلمانها إلى خارج الدار ثم خرجت الجارية وعادت ومعها جارية خلفها ودخلت دار الجواهري فبعثت الدار من الطيب فلما رآها الجواهري نهض قائماً ووضع لها مخدة وجلس بين يديها فمكثت ساعة لا تتكلم حتى استراحت ثم كشفت وجهها فخيل للجواهري أن الشمس أشرفت في منزله ثم قالت لجارتها: هذا الرجل الذي قلت لي عليه؟ فقالت الجارية: نعم فالتفتت إلى الجواهري وقالت له: كيف حالك؟ قال: بخير، ودعا لها، فقالت: إنك حملتنا المسير إليك وإن نطلعك على ما يكون من سرنا، ثم سألته عن اهله وعياله فأخبرها بجميع احواله وقال لها: إن لي داراً غير هذه الدار جعلتها للاجتماع بالأصحاب والأخوان ليس لي فيها إلا ما ذكرته لجارتك، ثم سألته عن كيفية اطلاعه على أصل القصة فأخبرها بما سألته عنه من أول الأمر إلى آخره فتأوهت على فراق أبي الحسن وقالت: يا فلان اعلم أن أرواح الناس متلائمة في الشهوات والناس بالناس ولا يتم عمل إلا بقول، ولا يتم غرض إلا بمعين، ولا تحصل راحة إلا بعد تعب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثالثة والتسعين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن شمس النهار قالت للجواهري: لا تحصل راحة إلا من بعد تعب ولا يظهر نجاح إلا من ذوي مروءة، وقد أطلعك الآن على أمرنا وصار بيدك هتكاً ولا زيادة لما أنت عليه من المروءة، فأنت قد علمت إن جارتك هذه كاتمة لسري وبسبب ذلك لها رتبة عظيمة عندي وقد اختصصتها بمهمات أموري فلا يكن عندك أعز منها وأطلعها على أمرك وطب نفساً فأنت آمن مما تخافه من جهتنا ومما يسد عليك موضع إلا وتفتحه لك وهي تأتيك من عندي بأخبار علي بن بكار وتكون أنت الوساطة في التبليغ بيني وبينه.

ثم إن شمس النهار قامت وهي لا تستطيع القيام ومشت فتمشى بين يديها الجواهري حتى وصلت إلى باب الدار، ثم رجعت وقعدت في موضعه بعد أن نظر من حسننها ما بهره وسمع من كلامها ما حير عقله وشاهد من ظرفها وأدبها ما أدهشه، ثم استمر يتفكر في شمائنها حتى سكنت نفسه وطلب الطعام فأكل ما يمسه رمقه، ثم غير ثيابه وخرج من داره وتوجه إلى علي بن بكار غلمانها ومشوا بين يديه إلى أن وصلوا إلى سيدهم فوجدوه ملقى على فراشه.

فلما رأى الجواهري قال له: أبطأت علي فزدتني همًا على همي، ثم صرف غلمانها وأمر بغلق أبوابه وقال له: والله ما غمضت عيني من يوم ما فارقتني فإن الجارية جاءتني بالأمس ومعها رقعة مختومة من عند سيدتها شمس النهار وحكى له علي بن بكار على جميع ما وقع له معها وقال: لقد تحيرت في أمري وقل صبري وكان لي أبو الحسن أنيساً لأنه يعرف الجارية، فلما سمع الجواهري كلام ابن بكار ضحك فقال له ك تضحك من كلامي وقد استبشرت بك واتخذتك عدة للنائبات؟ ثم بكى وأنشد هذه الأبيات:

وضاح من بكائي حين أبصرني  
لو كان قاسي الذي قاسيت أيكاه  
لم يرث للمبتلي مما يكابده  
إلا شبح منه قد طال بلواه  
وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي  
إلى حبيب زوايا القلب مأواه  
حل الفؤاد مقيماً لا يفارقه  
وقتاً ولكنه ضعيف قد عز لقياه

ما لي سواه خليل أرطني بدلاً

وما اصطفت حبيباً قط إلا هو

فلما سمع الجواهري منه هذا الكلام وفهم الشعر والنظام بكى لبيكاه وأخبره بما جرى مع الجارية من حين فارقه فصار ابن بكار يصغي إلى كلامه وكلما سمع منه كلمة يتغير لون وجهه من صفرة إلى احمرار ويقوى جسمه مرة ويضعف أخرى، فلما انتهى إلى آخر الكلام بكى ابن بكار وقال له: يا أخي أنا على كل حال هالك فليت أجلي قريب وأسالك من فضلك أن تكون ملاطفي في جميع أموري إلى أن يقضي الله ما يريد وأنا لا أخالف لك قولاً. فقال الجواهري: لا يطفئ عنك هذه النار إلا الاجتماع بمن شغفت بها ولكن في غير هذا المكان وإنما يكون ذلك عندي في بيت جنب بيتي الذي جاءتني فيه الجارية هي وسيدتها وهو الموضع الذي اختارته لنفسها والمقصود اجتماعكما ببعضكما وفيه تشكوان لبعضكما ما قاسيتما. فقال علي بن بكار: افعل ما تريد والذي تراه هو الصواب.

قال الجواهري: فأقمت عنده تلك الليلة أسامره إلى أن أصبح الصباح، ثم صليت الصبح وخرجت من عنده وذهبت إلى منزلي فما استقرت إلا قليلاً وسلمت علي فرددت عليها السلام وحدثتها بما كان بيني وبين علي بن بكار، فقالت الجارية: اعلم أن الخليفة توجه من عندنا وإن مجلسنا لا أحد فيه وهو أستر لنا وأحسن فقلت لها: كلامك صحيح ولكنه ليس كمنزلي هذا.

فقلت الجارية: إن الرأي ما تراه أنت وأنا ذاهبة إلى سيدي لأخبرها بما ذكرت وأعرض عليها ما قلت، ثم إن الجارية توجهت إلى سيدتها وعرضت عليها الكلام وعادت إلى منزلي وقالت لي: إن سيدتي رضية بما قلتها، ثم إن الجارية أخرجت من جيبها كيساً فيه دنانير وقالت: إن سيدتي تسلم عليك وتقول لك: خذ هذا واقض لنا ما نحتاج إليه، فأقسمت أني لا أصرف شيئاً منه فأخذته الجارية وعادت إلى سيدتها وقالت لها: إنه ما قبل الدراهم بل دفعها إلي، وبعد رواح الجارية ذهبت إلى داري الثانية وحولت إليها من الألت والفرش ما يحتاج إليه الحال ونقلت إليها أواني الفضة والصيني وهيات جميع ما نحتاج إليه من المأكّل والمشرب. فلما حضرت الجارية ونظرت ما فعلته أعجبها وأمرتني بإحضار علي بن بكار فقلت: ما يحضر به إلا أنت، فذهبت إليه واحضرته على أتم حال وقد راقت محاسنه فلما جاء قابله ورحبته به وأجاسته على مرتبنة تصلح له ووضعته بين يديه شيئاً من المشموم في بعض الأواني الصيني والبلور وصرت أتحدث معه ساعة من الزمان، ثم إن الجارية مضت وغابت إلى بعد صلاة المغرب ثم عادت ومعها شمس النهار ووصيفتان لا غير فلما رأته علي بن بكار ورأها سقطا على الأرض مغشياً عليهما واستمرا ساعة زمنية فلما أفاقا أقبلنا على بعضهما ثم جلسا يتحدثان بكلام رقيق وبعد استعمال شيئاً من الطيب ثم إنهما صارا يشكران صنعي معهما. فقلت لهما: هل لكما في شيء من الطعام؟ فقالا نعم، فأحضرت شيئاً من الطعام فاكلتا حتى اكتفيا ثم غسلتا أيديهما ثم نقلتهما إلى مجلس آخر واحضرت لهما الشراب فشربا وسكرا ومالا على بعضهما، ثم إن شمس النهار قالت لي: يا سيدي كمل جميلك واحضر لنا عوداً أو شيئاً من ألت الملاهي حتى أننا نكمل حظنا في هذه الساعة، فقلت: على رأسي وعيني، ثم إنني قمت واحضرت عوداً فأخذته وأصلحته ثم إنهما وضعتا في حجرها وضربت عليه جميلاً ثم أنشدت هذين البيتين:

وذبت حتى تراءى السقم لي خلقا

أرقت حتى كأنني أعشق الأرقا

يا ليت شعري هل بعد الفراق لقا

وفاض دمعني على خدي فأحرقه

ثم إنها أخذت في غناء الأشعار حتى حيرت الأفكار بأصوات مختلفات وإشارات رائقات وكاد المجلس أن يصح من شدة الطرب لما أتت فيه من مغانيها بالعجب، ثم قال الجواهري: ولما استقر بنا الجلوس ودارت بيننا الكؤوس أطربت الجارية بالنغمات وانشدت هذه الأبيات:

في ليلة ساعدها بليلي

وعد الحبيب بوصله ووفى لي

في غفلة الواشين والعدال

يا ليلة سمح الزمان لنا بها

فضمته من فرحي بشمالي

بات الحبيب يضمني بيمينه

وحظيت بالمعسول والعسال

عانقته ورشفت خمرة ريقه

ثم إن الجواهري تركهما في تلك الدار وانصرف إلى دار سكناه وبات فيها إلى الصباح، ولما أصبح الصبح صلى فرضه وشرب القهوة وجلس يفكر في المسير إليهما في داره الثانية، فبينما هو جالس إذ دخل عليه جاره وهو مرعوب وقال: يا أخي ما هان علي الذي جرى لك الليلة في دارك الثانية، فقلت له: يا أخي وأي شيء جرى في داري؟ فقال له: إن اللصوص قد رأوك بالأمس وأنت تنقل حوائجك إلى دارك الثانية فجاءوا إليها ليلاً

وأخذوا ما عندك. وقد حضرت لداري تلك فوجدتها خالية من الأثاث، ولا أثر لعلي بن بكار وشمس النهار ولا لوصيفتيها، فدهشت لذلك وبعدفترة وجيزة جاءني شخص لا أعرفه فقال لي: إذا كنت تريد إعادة أغراضك إليك فسر معي ولا تتكلم بشيء، فسرت معه فأخذني لعند رفاقه الذين قالوا لي: أطلعنا على خبرك ولا تكذب في شيء، فقلت لهم: اعلموا إن حالي عجيب وأمرى غريب فهل عندكم شيء من خبري؟ فقالوا: نعم نحن الذين أخذنا أمتعتك في الليلة الماضية وأخذنا صديقك والتي كانت تغني، فقلت لهم: أسبل الله عليكم ستره، أين صديقي هو والتي كانت تغني؟ فأشاروا إلي بأيديهم إلى ناحية وقالوا: ههنا ولكن يا أخي ما ظهر على سرهما أحد منا ومن حين أتينا بهما لم نجتمع عليهما ولم نسألهما عن حالهما لما رأينا عليهما من الهيئة والوقار وهذا هو الذي منعنا عن قتلها فأخبرنا عن حقيقة أمرهما وانت في أمان على نفسك وعليهما، قال الجواهرجي: فلما سمعت هذا الكلام.

و أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخامسة والتسعين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجواهرجي قال: لما سمعت هذا الكلام كدت أهلك من الخوف والفرع وقلت لهم: اعلموا أن المرأة إذا ضاعت لا توجد إلا عندكم وإذا كان عندي سر أخاف إقشائه فلا يخفيه إلا صدوركم، وصرت أبلغ في هذا المعنى، ثم إنني وجدت المبادرة لهم بأحدية أنفع من كتمانهم بجميع ما وقع لي حتى انتهيت آخر الحديث، فلما سمعوا حكايتي قالوا: وهل هذا الفتى علي بن بكار وهذه شمس النهار؟ فقلت لهم: نعم، فذهبوا إليهما واعتذروا لهما ثم قالوا: إن الذي أخذناه من دارك ذهب بعضه وهذا ما بقي منه، ثم ردوا إلي أكثر الأمتعة والتزموا أنهم يعيدوها إلى محلها في داري ويردون إلي الباقي ولكن اقسوا نصفين فصار قسم منهم معيتم خرجيا من تلف الدار، هذا ما كان من أمري.

و أما ما كان من أمر علي بن بكار وشمس النهار فإنهما قد أشرفا على الهلاك من الخوف، ثم تقدمت إلى علي بن بكار وشمس النهار وسلمت عليهما وقلت لهما: يا ترى ما جرى للجارية والوصيفتين وأين ذهبتا؟ فقالا: لا علم لنا بهن ولم نزل سائرين إلى أن انتهينا إلى المكان الذي فيه الزورق فأطلعونا فيه وإذا هو الزورق الذي عدينا بالأمس فقفف بنا الملاح حتى أوصلنا إلى البر الثاني فانزلونا فم استقر بنا الجلوس على جانب البر حتى جاءت خيالة واحاطوا بنا من كل جانب فوثب الذين معنا عاجلاً كالعقبان فرجع لهم الزورق فنزلوا فيه وسار بهم في البحر وبقيت أنا وعلي بن بكار وشمس النهار على شاطئ البحر لا نستطيع حركة ولا سكوناً فقال لنا الخيالة: من أين انتم؟ فتحيرنا في الجواب.

قال الجواهرجي: فقلت لهم: إن الذين رأيتوهم لا نعرفهم وإنما رأيناهم هنا وأما نحن فمغنون فأرادوا أخذنا لنغني لهم فما تخلينا منهم إلا بالخيالة ولين الكلام فأفرجوا عنا في هذه الساعة وقد كان منهم ما رأيتم من أمرهم فنظر الخيالة إلى شمس النهار وإلى علي بن بكار ثم قالوا لي: لست صادقاً فأخبرنا من أنتم ومن أين أنيتم وما موضعكم وفي أي الحارات انتم ساكنون؟ قال الجواهرجي: فلم أدر ما أقول، فوثبت شمس النهار وتقدم إلى مقدم الخيالة وتحدثت معه سرّاً فنزل من فوق جواده واركبها عليه وأخذ بزمامها وصار يقودها وكذلك فعل بعلي بن بكار وبني أيضاً. ثم إن مقدم الخيالة لم يزل سائراً بنا إلى موضع على جانب البحر وصاح بالرطانة فأقبل له جماعة من البرية فأطلعنا المقدم في زورق وأطلع أصحابه في زورق آخر فقففوا بنا إلى أن انتهينا إلى دار الخليفة ونحن نكابد الموت من شدة الخوف فدخلت شمس النهار وأما نحن فرجعنا ولم نزل سائرين إلى أن انتهينا إلى المحل الذي نتوصل منه إلى موضعنا فنزلنا على البر ومشيياً ومعنا جماعة من خيالة يؤانسونا إلى أن دخلنا الدار، وحين دخلناها ودعنا من كان معنا من الخيالة ومضوا في حال سبيلهم، وأما نحن فقد دخلنا مكاننا ونحن لا نقدر أن نتحرك من مكاننا ولا ندري الصباح من المساء، ولم نزل على هذه الحالة إلى أن أصبح الصباح.

فلما جاء آخر النهار سقط علي بن بكار مغشياً عليه وبكت عليه النساء والرجال وهو مطروح لم يتحرك فجاءني بعض أهله وقالوا: حدثنا بما جرى لولدنا وأخبرنا بسبب الحال الذي هو فيه؟ فقلت: يا قوم اسمعوا كلامي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السادسة والتسعين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجواهرجي قال: لا تفعلوا به مكروهاً واصبروا وهو يفيق ويخبركم بقصته بنفسه، ثم شددت عليهم وخوفتهم من الفضيحة بيني وبينهم، فبينما نحن كذلك وإذا بعلي بن بكار تحرك من فراشه ففرح أهله وانصرف الناس عنه ومنعني أهله من الخروج من عنده ثم رشوا ماء الورد على وجهه، فلما أفاق وشم الهواء صاروا يسألونه عن حاله فصار يخبرهم ولسانه لا يرد جواباً بسرعة، ثم أشار إليهم أن يطلقوني لأذهب إلى منزلي فأطلقوني فخرجت، فلما أردت المسير رأيت امرأة واقفة

فتأملتُها وإذا هي جارية شمس النهار فلما عرقتها سرت وهزلت في سيري فتبعنتي فدخلني منها الفزع وصرت كلما أنظرها يأخذني الرعب منها وهي تقول لي: قف حتى أحدثك بشيء وأنا لم أتقت إليها ولم أزل سائراً إلى مسجد في موضع خال من الناس فقالت لي: ادخل المسجد لأقول لك كلمة ولا تخف من شيء، فدخلت المسجد ودخلت خلفي فصليت ركعتين ثم تقدمت إليها وأنا أتأوه وقلت لها: ما بالك؟ فسألتنى عن حالى فحدثتها بما وقع لي وأخبرتها بما جرى لعلى بن بكار وقلت لها: ما خبرك؟ فقالت: اعلم أنى لما رأيت الرجال كسروا باب دارك ودخلوا خفت منهم وخشيت أن يكونوا من عند الخليفة فبأخذوني أنا وسيدتى فنهلك من وقتنا فهربت من السطوح أنا والوصيفتان ورمينا أنفسنا من مكان عال ودخلنا على قوم فهربنا عندهم حتى وصلنا إلى قصر الخلافة ونحن على أقبج صفة ثم أخفينا أمرنا وصرنا نتقلب على الجمر إلى أن جن الليل ففتحت باب البحر واستدعيت الملاح الذي أخرجنا تلك الليلة وقلت له: إن سيدتى لم نعلم لها خبراً احملنى في الزورق حتى أفتش عليها في البحر لعلى أقع على خبرها فحملنى في الزورق وسار بي ولم أزل سائراً في البحر حتى انتصف الليل فرأيت زورقاً أقبل لى جهة الباب وفيه رجلاً يقذف ومعه رجل آخر وامرأة مظروحة بينهما وما زال يقذف حتى وصل إلى البر فلما نزلت المرأة تأملتُها فإذا هي شمس النهار فنزلت إليها وقد اندهشت من الفرحة لما رأيتها بعدما قطعت الرجاء منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة والتسعين بعد المئة قالت: بلغنى أيها الملك السعيد أن الجارية قالت للجواهرجى فنزلت إليهما وقد اندهشت من الفرح فلما تقدمت بين يديها أمرتنى أن أدفع إلى الرجل الذي جاء بها ألف دينار، ثم حملتها أنا والوصيفتان إلى أن ألقيناها على فراشها فأقامت تلك الليلة على حالة مكدره، فلما أصبح الصباح منعت الجوارى والخدم من الدخول عليها والوصول إليها ذلك اليوم وفي ثاني يوم أفاقت مما كان بها، فوجدتها كأنها خرجت من مقبرة فرئت على وجهها ماء الورد وغيرت ثيابها وغسلت يديها ورجليها ولم أزل الأطفها حتى أطعمتها شيئاً من الطعام وأسقيتها شيئاً من الأشربة وهي ليس لها قابلية في شيء من ذلك فلما شممت الهواء وتوجهت إليها العاقية قلت لها: يا سيدتى أرفقى بنفسك فقد حصل لك من المشقة ما فيه الكفاية فإنك قد أشرفت على الهلاك فقالت: والله يا جارية الخير إن الموت عندي أهون مما جرى لي فإنى كنت مقتولة لا محالة لأن اللصوص لما خرجوا بنا من دار الجواهرجى سألونى وقالوا: من أنت وما شأنك؟ فقلت: أنا جارية من المغنيات فصدقونى ثم سألوا على بن بكار عن نفسه وقالوا: من أنت وما شأنك؟ فقال: أنا من عوام الناس فأخذونا وسرنا معهم إلى أنأنتهوا بنا إلى موضعهم، ونحن نسرع في السير معهم من شدة الخوف.

فلما استقروا بنا في أماكنهم تأملونى ونظروا ما على من الملبوس والعقود والجواهر فأنكروا أمرى وقالوا: إن هذه العقود لا تكن لواحدة من المغنيات ثم قالوا: صدقينا وقولى لنا الحق وما قضيتك؟ فلم أرد عليهم جواباً بشيء وقلت في نفسى: الآن يقتلونى لأجل ما على من الحلى والطل فلم أنطق بكلمة ثم التفتوا إلى على بن بكار وقالوا له: من أين أنت فإن رؤيتك غير رؤية العوام، فسكت وصرنا نكتم أمرنا ونبكي فحنن الله علينا قلوب اللصوص. فقالوا لنا: من صاحب الدار التي كنتما فيها؟ فقلنا لهم: صاحبها فلان الجواهرجى فقال واحد منهم: أنا أعرفه حق المعرفة وأعرف أنه ساكن في داره الثانية وعلى أن أتيتكم به في هذه الساعة، واتفقوا على أن يجعلنى في موضع وحدي وعلى بن بكار في موضع وحده وقالوا لنا: استريحا ولا تخافا أن ينكشف خبركما وأنتما في أمان منا ثم إن صاحبهما مضى إلى الجواهرجى وأتى به وكشف أمرنا لهم وأجمعنا عليه، ثم إن رجلاً منهم أحضر لنا زورقاً وأطلعونا فيه وعدوا بنا إلى الجانب الثاني ورمونا إلى البر وذهبوا فأتت خيالة من أصحاب العسس وقالوا: من تكونون؟ فتكلمت مع مقدم العسس وقلت له: أنا شمس النهار محظية الخليفة وقد سكرت وخرجت لبعض معارفى من نساء الوزراء فجاءنى اللصوص وأخذونى وأوصلونى إلى هذا المكان، فما راوكم فروا هاربين وأنا قادرة على مكفأتك.

فلما سمع كلامى مقدم الخيالة عرفنى ونزل عن مركوبه وأركبنى وفعل كذلك مع على بن بكار والجواهرجى وفي كيدي الآن من أجلهما لهيب النار لا سيما الجواهرجى رفيق اب بكار فامض إليه وسلمى عليه واستفسرى عن على بن بكار فلمتها على ما وقع منها وحذرتها وقلت لها: يا سيدتى خافى على نفسك فصاحت على وغضبت من كلامى. ثم قمت من عندها وجئت فلم أجدك وخشيت من الرواح إلى ابن بكار فصرت واقفة أترقبك حتى أسألك عنه وأعلم ما هو فيه فأسألك من فضلك أن تأخذ منى شيئاً من المال فإنك ربما استعرت أمتعة من أصحابك وضاعت عليك فتححتاج أن تعوض على الناس ما ذهب لهم من الأمتعة، قال الجواهرجى فقلت: سمعاً وطاعة ثم مشيت معها إلى أنأتينا إلى قرب محلى فقالت لي: قف هنا حتى أعود إليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والتسعين بعد المئة قالت: بلغنى أيها الملك السعيد أن الجارية مضت ثم عادت وهي حاملة المال فأعطته للجواهرجى وقالت له: يا سيدى أنجتم بك في أى محل؟ قال الجواهرجى، فقلت لها: أتوجه إلى

داري في هذه الساعة وأتحمل الصعوبة لأجل خاطرِكَ واتدبر فيما يوصلك إليه فإنه يتعذر إليه في مثل هذا الوقت ثم ودعتني ومضت فحملت المال وأتيت به إلى منزلي وعددت المال فوجدته خمسة ألف دينار فأعطيت أهلي منه شيئاً ومن كان له عندي شيء أعطيته عوضاً منه، ثم إنني أخذت غلmani وذهبت إلى الدار التي ضاعت منها الأمتعة وجئت بالنجارين والبنائين فأعادوها إلى ما كانت عليه، وجعلت جاريتي فيها ونسيت ما جرى لي ثم تمشيت إلى دار علي بن بكار، فلما وصلت إليها أقبل غلمانهُ علي وقال لي واحد منهم: إن غلمان سيدي في طلبك ليلاً ونهاراً وقد وعدهم أن كل من أتاه بك يعتقه فهم يفتشون عليك ولم يعرفوا لك موضعاً وقد رجعت إلى سيدي عاقبته وهو تارة يفيق وتارة يستغرق، فلما يفيق يذكركَ ويقول: لا بد أن تحضروه لحظة لي ويعود إلى حال سبيله قال الجواهرجي: فمضيت مع الغلام إلى سيده فوجدته لا يستطيع الكلام فلما رأيته جلست عند رأسه ففتح عينيه فلما رأني قال: اعلم أن لكل شيء نهاية، ونهاية الهوى الموت أو الوصال وأنا إلى الموت أقرب فيا ليتني مت من قبل الذي جرى ولولا أن الله لطف بنا لافتضحنا ولا أدري ما الذي يوصلني إلى الخلاص مما أنا فيه ولولا خوفني من الله تعالى لعجلت على نفسي بالهلاك واعلم يا أخي أنني كالطير في القفص وإن نفسي هالكة من الغصص ولكن لها وقت معلوم وأجل محتوم ثم أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين:

شكا ألم الفراق الناس قبلي  
وروع بالنوى حي وميت  
وأما مثل ما ضمت ضلوعي  
فإني ما سمعت ولا رأيت

فلما فرغ من شعره قال له الجواهرجي: يا سيدي اعلم أنني عزم على الذهاب إلى داري فلعل الجارية ترجع إلي بخبر، فقال علي بن بكار: لا بأس بذلك ولكن أسرع بالعودة عندنا لأجل أن تخبرني. قال الجواهرجي فودعته وانصرفت إلى داري فلم يستقر بي الجلوس حتى رأيت الجارية أقبلت وهي في بكاء ونحيب فقلت لها: ما سبب ذلك؟ فقالت يا سيدي اعلم أنه حل بنا ما حل من أمر نخافه فإني مضيت من عندك بالأمس، وجدت سيدي مغناظة على وصيفة من الوصيفتين اللتين كانتا معنا تلك الليلة وامرت بضربها فخافت من سيديتها وهربت فلاقاها بعض الموكلين بالبواب، وأراد ردها إلى سيديتها فلوحت له بالكلام فلاطفها واستنطقها عن حالها فأخبرته بما كنا فيه فبلغ الخبر إلى الخليفة فأمر بنقل سيديتي شمس النهار وجميع ما لها إلى درجة الخلافة وكل بها عشرين خادماً ولم أجمع بها إلى الآن ولم أعلمها بالسبب وتوهمت أن بسبب ذلك فخشيت على نفسي واحترت يا سيدي ولم أدر كيف أحتال في أمري وأمرها ولم يكن عندها حفظ لكتمان السر مني، وأدرك شهر زاد الصباح فسكنت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والتسعين بعد المئة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت للجواهرجي: توجه يا سيدي إلى علي بن بكار سريعاً وأخبره بذلك لأجل أن يكون على أهبة فإذا انكشف الأمر نتدبر في شيء نفعله لنجاة أنفسنا. فأخذني من ذلك هم عظيم وصار الكون في وجهي ظلاماً كمن كلام الجارية وهمت الجارية بالإصراف فقلت لها: وما الرأي؟ فقالت لي: الرأي أن تبادر إلى علي بن بكار إن كان صديقك وتريد له النجاة وانت عليك تبليغ هذا الخبر بسرعة وأنا علي أن أتقيد باستنشاق الأخبار ثم ودعتني وخرجت. فلما خرجت الجارية قمت وخرجت في أثرها وتوجهت إلى علي بن بكار فوجدته يحدث نفسه بالوصل ويعللها بالمجال فلما رأني رجعت إليه عاجلاً قال: إنني أراك رجعت إلي في الحال قلت له: أقصر من التعلق البطال ودع ما أنت فيه من الإشتغال فقد حدثت يفضي إلى تلف نفسك ومالك فلما سمع هذا الكلام تغير حاله وانزعج وقال للجواهرجي: يا أخي أخبرني بما وقع؟ فقال له الجواهرجي: يا سيدي اعلم أنه قد جرى ما هو كذا وكذا وإنك إن أقمتم في دارك هذه إلى آخر النهار فأنت تالف لا محالة، فبهت علي بن بكار وكادت روحه أن تفارق جسده، ثم استرجع بعد ذلك وقال له: ماذا نفعل يا أخي وما عندك من الرأي؟ قال الجواهرجي، فقلت له: الرأي أن تأخذ معك من مالك ما تقدر عليه ومن غلمانك ما تتق به وإن تمضي بنا إلى ديار هذه قبل أن ينقضي هذا النهار فقال سمعاً وطاعة، ثم وثب وهو متحير في أمره فتارة يمشي وتارة يقع وأخذ ما قدر عليه واعتذر إلى أهله وأوصاهم بمقصوده وأخذ معه ثلاثة جمال محملة وركب دابة وقد فعلت أنا كما فعل، ثم خرجنا خفية وسرنا ولم نزل سائرين باقي يومنا وليلتنا فلما كان آخر النهار حططنا حملونا وعقلنا وجمالنا ونمنا فحل علينا التعب وغفلنا عن أنفسنا وإذا باللصوص أحاطوا بنا وأخذوا جميع ما كان معنا وقتلوا الغلمان ثم تركونا بأماكننا ونحن في أقبج حال بعد أن أخذوا المال وساروا، فلما قمنا مشينا إلى أن أصبح الصباح فوصلنا إلى بلد فدخلناها وقصدنا مسجده ونحن عرايا وجلسنا في جنب المسجد باقي يومنا فلما جاء الليل بتنا في المسجد تلك الليلة ونحن من غير أكل ولا شرب فلما أصبح الصباح وجلسنا وإذا برجل داخل فسلم علينا وصلى ركعتين. ثم التفت لإلينا وقال: يا جماعة هل انتم غرباء؟ قلنا: نعم وقطع اللصوص علينا الطريق وغزونا ودخلنا هذه البلدة ولا نعرف فيها أحداً نأوي عنده، فقال لنا الرجل هل لكم أن تقوموا معي إلى دياري؟ قال الجواهرجي فقلت لعلي بن بكار: قم بنا معه فننجو من أمرين: الأول اننا نخشى أن يدخل علينا احد يعرفنا في هذا المسجد فنفتضح، والثاني أننا أناس غرباء وليس لنا مكان نأوي إليه.

فقال علي بن بكار: افعل ما تريد ثم إن الرجل قال لنا ثاني مرة: يا فقراء أطيعوني وسيروا معي إلى مكاني قال الجواهري فقلت له: سمعاً وطاعة، ثم إن الرجل خلع لنا شيئاً من ثيابه وألبسنا ولاطفنا فقمنا معه إلى داره فطرق الباب فخرج إلينا خادم صغير وفتح الباب، فدخل الرجل صاحب المنزل ودخلنا خلفه ثم إن الرجل أمر بإحضار بقجة فيها أثواب وشاشات فألبسنا حلتين وأعطانا شاشين فتعمنا وجلسنا وإذا بجارية أقبلت لإلينا بمائدة ووضعتها بين أيدينا فاكلنا وشربنا شيئاً يسيراً ورفعت المائدة ثم أقمنا عنده إلى أن حل الليل. فتأوه علي بن بكار وقال للجواهري: يا أخي اعلم انني هالك لا محالة وأريد أن أوصيك وصية وهو انك إذا رأيتني مت تذهب إلى هذا المكان لأجل أن تأخذ عزابي، وتحضر غسلي وأوصيها أنتكون صابرة على فراقني ثم وقع مغشياً عليه فلما أفاق سمع جارية تغني من بعيد وتتشد الأشعار فصار يصغي إليها ويسمع صوتها وهو تارة يضحك وتارة يبكي شجناً وحرناً مما أصابه فسمع الجارية تطرب بالنغمات وتتشد هذه الأبيات:

عجل البين بيننا بالفراق	بعد ألف وجيرة واتفاق
فرقت بيننا صروف الليالي	ليت شعري متى يكون التلاقي
ما أمر الفراق بعد اجتماع	ليته ما أضر بالعشاق
غصة الموت ساعة ثم تنقضي	وفراق الحبيب في القلب باق
لو وجدنا إلى الفراق سبيلاً	لأذقنا الفراق طعم الفراق

فلما سمع ابن بكار إنشاد الجارية شق شهقة ففارقت روحه جسده، قال الجواهري: فلما رأيت مات أوصيت عليه الدار وقلت له: اعلم أنني متوجه إلى بغداد لأخبر والدته وأقاربه حتى يأتوا ليجهزوه ثم إنني توجهت إلى بغداد ودخلت داري وغيرت ثيابي وبعد ذلك ذهبت إلى دار علي بن بكار فلما رأني غلماناً أتوا إلي وسألوني عنه وسألتهم أن يستأذنوا لي والدته في الدخول عليها فأذنت لي بالدخول وسلمت عليها وقلت: إن الله إذا قضى أمراً لا مفر من قضائه وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً فتوهمت أم علي بن بكار من هذا الكلام أن ابنها قد مات فيكت بكاءً شديداً، ثم قالت: بالله عليك أن تخبرني هل توفي ولدي؟ فلم أقدر أن أرد عليها جواباً من كثرة الجزع، فلما رأته على تلك الحالة انخنقت بالبكاء ثم وقعت على الأرض مغشياً عليها فلما أفاقت من غشيتها قالت: ما كان من أمر ولدي؟ فقلت لها: عظم الله أجرك فيه ثم إنني حدثتها بما كان من أمره من المبتدأ إلى المنتهى قالت: أوصاك بشيء؟ فقلت لها: نعم وأخبرتها بما أوصاني به وقلت لها: أسرعي في تجهيزه فلما سمعت أم علي بن بكار كلامي سقطت مغشياً عليها فلما أفاقت عزمت على ما أوصيتها به ثم إنني رجعت إلى داري وسرت في الطريق أتفكر في حسن شبابه فبينما أنا كذلك وإذا بامرأة قبضت على يدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة المائتين قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجواهري قال: وإذا بامرأة قد قبضت على يدي فتأملتها فرأيتها الجارية التي كانت تمشي من عند شمس النهار وقد علاها الإنكسار فلما تعارفنا بكينا جميعاً وسرنا حتى أتينا إلى تلك الدار فقلت لها: هل علمت بخبر علي بن بكار؟ فقالت: لا والله، فأخبرتها بخبره وما كان من أمره ثم إنني قلت لها: كيف حال سيدتك؟ فقالت: لم يقبل فيها أمير المؤمنين قول أحد لشدة محبته لها وقد حمل جميع أمورها على المحامل الحسنة وقال لها: يا شمس النهار أنت عندي عزيزة وأنا اتحملك على رغم أعدائك ثم أمر لها بفرش مقصورة مذهبة وحجرة مليحة وصارت عنده من ذلك في قبول عظيم، فاتفق أنه جلس يوماً من الأيام على جري عادته للشراب، وحضرت المحاذي بين يديه فأجلسهن في مراتبهن وأجلسه بجانبه وقد عدت صبرها وزاد أمرها فعند ذلك أمر جارية من الجواري أن تغني فأخذت العود وضربت به وجعلت تقول:

وداع دعاني للهوى فأجبتة	ودمعي بحط الوجد حطاً على خدي
كأن دموع العين تخبر حالنا	فتبدي الذي أخفى وتخفي الذي أبدي
كيف أروم السر أو أكتم الهوى	وفرط غرامي فيك يظهر ما عندي
وقد طاب موتي عند فقد أحبتي	فيا ليت شعري ما يطيب لهم بعدي

فلما سمعت شمس النهار إنشاد الجارية لم تستطع الجلوس ثم سقطت مغشياً عليها فرمى الخليفة القدر وجذبها عنده وصاح وصاحت الجوارى وقلبتها أمير المؤمنين فوجدها ميتة فحزن أمير المؤمنين لموتها وأمر أن يكسر جميع ما كان في الحضرة من الآلات والقوانين وحملها في حجرة بعد موتها ومكث عندها باقي ليلته فلما طلع النهار جهزها وأمر بغسلها ودفنها وحزن عليها حزناً كثيراً ولم يسأل عن حالها ولا عن الأمر الذي كانت فيه ثم قالت الجارية للجواهري: سألتك بالله أن تعلمني بوقت خروج جنازة علي بن بكار وأن تحضرني دفنه، فقال لها: أما أنا ففي أي محل شئت تجدني وأما أنت فمن يستطيع الوصول إليك في المحل الذي أنت فيه. فقالت له:

إن أمير المؤمنين لما ماتت شمس النهار أعتق جواربها من يوم مماتها وأنا من جملتهن ونحن مقيمات على تربتها في المحل الفلاني فقامت معها وأتيت المقبرة وزرت شمس النهار ثم مضيت إلى حالي ولم أزل أنتظر جنازة علي بن بكار إلى أن جاءت فخرجت له أهل بغداد وخرجت معه فوجدت الجارية بين النساء وهي أشدهن حزناً ولم أر جنازة أعظم من هذه الجنازة وما زلنا في ازدحام عظيم إلى أن أتينا إلى قبره ودفناه وصرت لا أنقطع عن زيارته ولا عن زيارة شمس النهار. هذا ما كان من حديثهما وليس بأعجب من حديث الملك شهرمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.